محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج:01، السداسي الثالث.

المحاضرة الخامسة: قضية الوحدة والكثرة في القصيدة

تمهيد:

قضية الوحدة والكثرة فى القصيدة العربية القديمة من أهم القضايا النقدية التى نالت أهمية كبيرة فى النقد الحديث، والتي تباينت فيها الآراء وكثرت حولها الأفكار، فحينما نتحدث عن الوحدة يتبادر إلى أذهاننا شيئان: الأول: هو البنية الشكلية والتكوينية للقصيدة من حيث اعتبارها تتكون من بيت مفرد يتيم، أو نتفة، أو مقطوعة، أو قصيدة بسيطة أو مركبة، أما الثاني: فالمقصود به الوحدة النفسية أو الوحدة العضوية أو الوحدة الموضوعية، أو وحدة البيت، والكثرة هي تعدد الأغراض وتنوع أجزاء القصيدة. والمعنى الثاني هو المراد عند من تكلموا عن هذه القضية.

بداية علينا أن نوضح أن النقاد المعاصرين اهتموا بالوحدة العضوية أو الوحدة الفنية بعدما رأوا حضورها في النقد والأدب الغربيين؛ في كل المذاهب بدءا بالرومانسية. فتوجهوا بالبحث عن تجلياتها في الشعر العربي القديم.

مفهوم الوحدة العضوية:

يقصد النقاد بالوحدة العضوية أن تكون القصيدة مترابطة الأجزاء متماسكة الأعضاء، وأن تكون بنية واحدة تامة الخلق، وأن تكون كل بيت فيها كجزء خاضع ومكمل لجزء آخر. يقول "عباس محمود العقاد":« القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه. والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها».

وأوضح من هذا قوله:« القصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضعه، إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها ولا قوام لفن بغير ذلك» .

نرى أن "العقاد" لا يرضى أبدا بكونها قضية ثانوية فى القصيدة بل جعلها جوهرها وأصلها الذى ينبثق منه وجودها.

الوحدة العضوية في القصيدة العربية عند القدماء:

الوحدة العضوية بالمعنى السابق لم تعرفها القصيدة العربية القديمة بوجه عام، وبالتالي لم تكن هذه القضية بمفهومها من بين قضايا نقدنا العربي القديم _ كما أسلفنا الذكر_، ومع ذلك لم يخل تراثنا النقدي من إشارات متناثرة إلى ضرورة وجود نوع من الترابط بين أجزاء القصيدة، لا يرقى إلى مستوى المطالبة بوجود وحدة عضوية للقصيدة ولكنه على أية حال ظن بعض نقادنا القدامى بأنها يمكن أن تكون من معايير جودة القصيدة وتفوقها.

_ مفهوم الوحدة العضوية عند الجاحظ:

المتتبع لما كتبه الجاحظ يجد بعض الإشارات التي يفهم منها وحدة القصيدة، من ذلك حديثه عن مفهوم "القران" في الشعر، المشار إليه من طرف رؤبة بن العجاج، والذي فسره الجاحظ بالتشابه والموافقة بين أبيات القصيدة، ويفسر هذا القران بشاهد عن "عمر بن لجأ" أن قال لبعض الشعراء:« أنا أشعر منك. قال: بم ذلك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه ولأنك تقول البيت وابن عمه».

وله نص آخر يشير فيه إلى شروط البلاغة، وما يجب أن يكون عليه الكلام، يعدّ نواة لما سنراه عند من جاء بعده من النقاد وخاصة ابن قتيبة وابن طباطبا وحازم، وذلك في قوله:« أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان».

_ مفهوم الوحدة العضوية عند ابن قتيبة:

كان ابن قتيبة من بين نقادنا الذين أشاروا إلى قيمة ترابط أجزاء القصيدة التى تدل على وجود هذه القضية وملامحها عنده، وإن لم تكن واضحة ومحددة، نذكر هنا ملخص آراءه من خلال كتابه " الشعر والشعراء.

تناول" ابن قتيبة" فى كتابه الوحدة في إطار الكثرة المرتبطة بالقصيدة الطويلة أو المركبة، فذهب« إلى الأخذ بالوحدة النفسية عند المتلقي؛ أي قدرة الشاعر على جذب انتباه السامع أولا ليضعه في جو نفسي قابل لتلقي ما يجيء بعد ذلك»، ولكنه قد تنبه لإمكانية وروود أكثر من موضوع مختلف في قصيدة واحدة، مما يخرج بها من جوها النفسي العام الذي يؤطرها، ولهذا راح يشترط وجود وحدة داخلية تتجسد بالتكافؤ والتناسب بين الألفاظ والمعاني، وذلك في ذكره لأقسام الشعر باعتبار اللفظ والمعنى، وأجودها عنده: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه،

كما جعل القصيدة التى لا يوجد بين أبياتها انسجام وترابط وأن تكون أبياتها متنافرة لا صلة بين بعضها ببعض آخر من الشعر المتكلف.(ينظر المحاضرة السابقة، رأيه في الشعر المتكلف.

_ مفهوم الوحدة العضوية عند ابن طباطبا العلوي:

كان ابن طباطبا من أنضج نقادنا القدامى فيما يتصل بموضوع وحدة القصيدة، وكان من أشد نقادنا القدامى اقتراباً من مفهوم وحدة القصيدة في النقد الحديث وتصوره للوحدة في القصيدة أشد وضوحاً وتبلوراً ودقة من تصور ابن قتيبة لهذه الوحدة .

وقد ارتكزت الوحدة العضوية لدى ابن طباطبا على:

_ التركيز على تهذيب القصيدة واعتدال أجزائها وحسن تركيبها، وإيجاد الملاءمة بين المعاني والألفاظ، وأن تتم هذه الأمور بدقة وعناية وملاحظة متكررة ، فقد شبه الشاعر بالنساج و النقاش و الناظم .

_العناية التامة بمطلع القصيدة وافتتاحيتها بأن تكون أقرب إلى ذهن السامع.

_ حسن التخلص والانتقال من غرض إلى غرض بلباقة وحذق حتى لا تنقطع أجزاء القصيدة.

_ اجتناب الحشو الذي لا فائدة منه والاهتمام بتنسيق الأبيات وحسن تجاورها.

_ يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وتأليفا وفصاحة وجزالة.

_ عدم إمكانية التقديم والتأخير في القصيدة وقد جعله ميزانا لجودة القصيدة ورداءتها، وقال: «أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل».

وهذا لا يعني أنه ينكر تعدد الأغراض فى القصيدة، بل يذكرها لكنه يدعو إلى الترابط بين أجزائها، وإجادة الانتقال من غرض إلى غرض، فتكون بهذا موضوعات القصيدة متعددة لكن الوحدة فيها تكون وحدة بناء .

بناء على ما سبق، يتضح لنا أن نقادنا القدامى تنبهوا إلى عنصر الوحدة في القصيدة سواء على مستوى العلاقة بين شطري البيت الواحد، أو التكامل بين البيتين والثلاثة، وأنها لم تمتد لتشمل القصيدة كاملة، وأن الوحدة عندهم لا تخرج _عموما_ عن مفهوم الصناعة الشعرية وبناء القصيدة من المطلع حتى المقطع، وما يتبع ذلك من تخلص وتناسب بين

أجزاء القصيدة. كما أنه لابد علينا من ذكر وحدة الموضوع ووحدة البيت اللذين كان حضورهما في المنجزات الشعرية القديمة أوفر حظا.

وصفوة الكلام كما يقول "أحمد مطلوب" في نظرة القدامى لوحدة القصيدة:« إن العرب عرفوا الكثير من ارتباط الأبيات في القصيدة الواحدة وتلاحم أجزائها، ولكنهم لم يطبقوا قواعدهم وآراءهم كما فعل المعاصرون، وهم في هذا كله ينطلقون من واقع حياتهم وتصورهم للشعر».